دراسة نموذجية لجناح الأحداث

بقلم

ماهر كامل

ماجستير فى الآداب

عرضنا في العدد السابق لحالة من حالات جناح الأحداث وبينا كيف عالجها المحلل النفسى وفيما يلى نواصل الدراسة فنبدأ بحالة أخرى للأستاذة كيت فريدلاندر Kate Friedlander :

جىء بالصبى پيتر — وعمره خمسة عشرة عاماً — أمام القضاء متهماً بسرقة نقود عن طريق التزييف والاختلاس . ذلك أن پيتر كان قد استولى على دفتر توفير يخص أحد زملائه . وكان هذا الدفتر قد سقط منه فالتقطه پيتر على أن يعيده له فى اليوم التالى عند بدء عمل المصنع . ولكنه فى اليوم التالى ذهب متأخراً فطرد من عمله ، وظل يعيش على نقود زميله خمسة أسابيع . وهكذا سحب خمسة عشر جنيهاً إلى أن لاحظ مكتب البريد أن إمضاءه لا يشابه الإمضاء الذى فى الدفتر ؛ ومن هنا بدأت الريبة تحوم حوله إلى أن اكتشفت المسألة .

جاء الولد من منزل من الطبقة المتوسطة ، حسن السمعة . وكان لديه أخت أصغر منه بسنتين ، ولم لم تبد هذه الأخت أى مشكلة فى يوم من الأيام ، كما كانت له شقيقة أخرى ، عمرها ستة أشهر . ولم يكن فى تاريخ پيتر — قبل هذه الحادثة التى ضبط فيها — مايدل على أى عمل مضاد للمجتمع ، ولكن كان الناظر قد كتب عنه تقريراً سيئاً فى آخر مدرسة كان بها . وكان واضحاً للمدرسة أنه أنه لم يستذكر دروسه باجتهاد طيلة الفترتين الأخيرتين ، وقد شكا الناظر من سلوكه العام ، ولو أنه لم توجه إليه أى تهمة واضحة . ولقد غادر المدرسة قبل حادث السرقة بستة أشهر ، وأخذ يعمل فى مصنع . وكان پيتر أيضاً عضوا ممتازاً فى المدرسة

1. Kate Friedlander: The Psycho - Analytical Approach to juvenile Delinquency. (Kegan Paul, London) 1947

البحرية لتخريج رجال الأسطول طيلة السنتين الأخيرتين ، حتى أن ضابطه اعتبره واحدا من أحسن الطلبة وأثبتهم جناناً وأكثرهم قربا من النجاح والتفوق . لقد كان يصبو إلى أن يكون مهندساً بحرياً ، ولكنه ما كان يستطيع أن يبدأ تدريبه قبل أن تكتمل له ١٦ سنة . ولذا أدخله أبوه فى عمل خلال السنة والنصف الباقية على هذا الموعد . وكان پيتر يكره عمله الحالى لأنه يتطلب منه أن يظل جالساً فى مكتب طول النهار . وكثيراً ما كان يأتى متأخراً إلى مقر عمله ، ولذا فقد فرح عندما طرد من عمله . وخلال الأسابيع الخمسة التى قضاها عاطلا كان يخرج من منزله فى الوقت المعتاد ويسير فى الشارع ، وكثيراً ما كان يذهب للسينما . ولقد جرى على أن يأخذ ثلاثة جنيهات من مكتب البريد كل أسبوع فيدفع منها اثنين وثلاثين شلنا للمنزل كالعادة نظير مصروفاته العادية ويحتفظ بالباقى لنفسه .

لقد كان المنزل الذى أتى منه پيتر منزلا حسنا ، فالأب له شخصية قوية ويشغل منصب مستشار وكان قاسياً إلى حد ما ، ولكنه يهتم كثيراً بالأطفال ومشاكلهم .وحتى سن الثانية عشر كان الولد يخرج مع أبيه ليلعب مع زملائه فى وقت الفراغ كرة القدم ، وكان الأب نفسه يشترك فى اللعب أحياناً . وكانت الأمة عطوفة لينة ودودة ، مغرمة جدا بالولد ، وفى حاجة لحبه وتعلقه ، وقد قدم لها الولد هذا الحب والحنان بسخاء أكثر مما فعلت البنت . وكان پيتر على وفاق تام مع أخته حتى أنه بعد قليل كان الصغيران يكونان جبهة متحدة ضد الوالدين .

كانت طفولة پيتر خالية من الحوادث . كان دائماً ذا صحة جيدة ، ولم تقابله صعوبات دراسية أو تربوية ذات بال ، إلا أنه كان يعاند إذا ضغط عليه أحدهم ليقوم بشىء . ومع ذلك فقد كان من السهل إقناعه بطريقة ودية . ولقد اضطرت الحكومة — بسبب ظروف الحرب — إلى ترحيله لمدة سنة ونصف ، وكان سلوكه حميدا طوال مدة بعده عن المنزل ، ولكنه كان يحن كثيراً للعودة . ولقد أكد الوالدان أن الولد لايمكن أن يكون قد سرق من المنزل إلا بعض المأكولات التى يحن إليها كل طفل دون أن يبلغهم . ولم يكن الوالدان يعتبران هذا العمل ذنباً وقد كان پيتر فى خلال السنة الأخيرة قلقاً غير مستقر وتنتابه أحياناً بعض حالات تجهم .

وعندما بلغ پيتر ١٣½ سنة قيل له إنه سيكون له أخ أو أخت صغيرة . وعندما

فاتحه أبوه بهذا النبأ فى أول الأمر كانت استجابته تدل على عدم ترحيبه به . ولكن عندما رحل أبوه أثناء مدة الحمل كان سلوك پيتر متزناً جداً ، إذ كان يذهب إلى فراش أمه أثناء الغارات الجوية ويمسك بيدها مشجعاً (بالرغم من أنه فى حالات أخرى عندما يكون وحيدا فإنه لا يصحو من نومه لدى إطلاق صفارة الإنذار) ، كما كان پيتر يتغيب عن المدرسة عند شعورها بالمرض ، ويساعدها فى الأعمال المنزلية . وبالاختصار كان يأخذ على عاتقه كل مسئوليات الشخص البالغ ، وكان ذلك بالطبع مخالفاً لسلوكه الصبيانى العادى . وعندما عاد أبوه بعد أسبوعين عاد الولد إلى ابتعاده ووحدته السابقتين . وبعد ولادة الطفلة الصغيرة بقليل بدأ يهتم بها كما لو كانت ابنته . . . كان يحملها عندما تصرخ ويسير بها فى أنحاء الحجرة ، ويقضى معظم وقت فراغة معتنياً بالطفلة .

ولقد ظهرت بوادر السوء فى سلوكه عقب الوقت الذى قيل له فيه أولا عن حمل أمه .وقد وضح من قصة الولد أنه كان يكره أساتذته ، وخاصة ناظر المدرسة ، كما كان ينتهز كل فرصة ليظهر لهم أنه ليس خائفاً منهم . ولقد كانت نتيجة هذا التحدى أن أصبح الولد يتهم بكل خطأ يرتكب فى الفصل .وفى الواقع كان الخطأ يرجع إليه فى بعض الأحوال ، ولكنه — حتى فى الحالات التى لم يكن هو المخطىء فيها — لم يكن يهتم أقل اهتمام باقناع أساتذته أنه ليس مذنباً .وفى هذا الوقت بدأت ميوله تتشتت بين مدرسته وبين المدرسة البحرية واتجهت آماله إلى بدء حياته العملية بأسرع مايمكن ؛ وهو مايعنى فى نفس الوقت أن يترك منزله .

الصراع الشعورى : كان الولد أطول بكثير من مستواه وجذابا جدا ، ذكاؤه عالى جداً (١٣٥) ، ولم يتكلم كثيراً عن فعلته الجانحة . وكل ما تقدم به من تفسير هو أنه لم يكن يريد أن يعلم أبوه أنه طرد من عمله لئلا يحتقره . وما كان ليقلل من المسألة . ولقد كان يعتقد فى مبدإ الأمر أن أباه سيمنعه — عقاباً له — من الاستمرار فى المدرسة البحرية ، وهو خوف ما كان فى الحق يجد له ما يبرره أو أى أساس من الصحة .

ومن أغرب العوامل التى تلفت النظر فى المسألة تحديه للسلطة المدرسية ،وهو تحد كان يحجبه غطاء سطحى من الود وحب الملاطفة . ولم يبد دلالات سافرة على الثورة والتمرد ، ولكن مع ذلك لم يكن من الصعب اكتشاف عدائه نحو أبيه . وهو نفسه لم يكن يستطيع أن يتفهم مشاعره .كان يدرك من ناحية أن أباه حاول

دائماً أن يكون صديقاً مخلصاً له ، ولم يتخل عنه مطلقاً ، ولكنه من ناحية أخرى كان يثور لدى أى منع أو تقييد . وكثيراً ما كان يصخب ويثور إذا منع من الخروج فى الليل ، وكثيراً ما كان يعارض آراء أبيه فى السياسة والموسيقى ؛ والخلاصة أنه كان يخالف أباه فى كل ما يقول أو يعمل . ولكنه ما كان يجرؤ على التصريح بمشاعره إلا نادرا ، فإذا فعل كان يسارع إلى الخضوع تحت ضغط الخوف من استجابات أبيه ، ولو أن هذا الخوف كان بسبب اتجاه الأب نحو التجهم أكثر مما قد يأتيه من العقوبة الفعلية ولقد كان شعوره نحو الناظر يماثل شعوره نحو أبيه تماما . ولوحظ أن الولد كان قلقاً جداً على أمه فى فترة الحمل لأنه سبق أن قيل له يوماً أنها مرضت بعد أن ولدته مرضاً شديداً ، وكثيراً ما ردد أنه يخشى أن تموت أمه خلال ابتعادها عنه أثناء الولادة أو بعدها بقليل . وبعد أن اكتشفت فعلته الجنائية لم يكن يخشى الإجراءات الرسمية ، وما كان يهمه أن يظهر فى ساحة القضاء ؛ ولكن الشىء الوحيد الذى أقلقه كان استجابة أبيه . لقد حيره ألا يعاقبه أبوه بمجرد اكتشاف السرقة ، بل ولم يتحدث إليه عن المسألة التى لم يذكر شيئاً عنها لأخته ولكنه كان يتوقع أن تثور العاصفة فى أية لحظة .

وما من شك فى أن الدافع السطحى للسلوك المضاد فى حالة هذا الولد هو رغبته فى إخفاء أمر طرده من عمله ، وأن يقضى وقتا سعيداً بالاستعانة بالنقود المسروقة . ولعل مما يدلنا على أن هذا ليس هو الدافع الوحيد دراستنا لتاريخه السابق . فبالرغم من أنه كان يكره المدرسة كرها شديدا ، لم يحاول أن يهرب منها مطلقاً ، ولم يسبق أن حدث مرة فى حياته أن اختار طريقاً سهلا للخروج من مأزق حرج . كانت أربع ليال من كل أسبوع تقضى إما مع طلبة المدرسة البحرية أو فى عمل من أعمال النادى . ولم يتغيب عن حضور أى أمسية من هذه الأمسيات . ومما يلفت النظر أنه كان يمكنه أن يتجنب احتقار أبيه له لفقده عمله بالحصول على عمل آخر فى الحال ، ولم يكن ذلك فى شىء من الصعوبة نظراً لظروف الحرب . والواقع أن الأب نفسه كان قد قال له من أول الأمر إن فى إمكانه أن يغير عمله بسهولة إذا كان لا يعجبه .

ومن الغريب أنه خلال الأسابيع الخمسة — بعد الفصل من عمله — لم يفكر الولد جدياً فيما قد يحدث لو أن المال نفذ ، وكان قد اقتطع منه أكثر من نصفه وفيما لو اكتشف أن لا حق له فى الإمضاء على الدفتر ، ذلك لأنه لم يحاول أية

محاولة أن يقلد إمضاء صاحبه . كان يسير فى الشوارع كأنما هو فى حلم من أحلام اليقظة ، متصورا أنه قد أصبح رجلا متكامل الرجولة وأنه أصبح أحد رجال الأسطول .

الصراع اللاشعورى : من الواضح لنا أن هناك دافعاً أكثر عمقاً ، واتصالا باللاشعور لهذا الاتجاه العدائى الذى كان يحسه نحو أبيه . فما كان پيتر ليجد سلاحاً أكثر مضاء لإيذاء أبيه وطعنه فى كبريائه من ارتكاب هذا العمل المضاد ، وخصوصاً أن هواية الأب كانت تنصب على ذلك العمل التعاونى فى إنشاء هيئة ناد لأولاد من سن ابنه ، وكان غرضه من هذا أن يبعدهم من الانغماس فى أعمال مضادة ولاشك أنه كان من المزعج فعلا ومما يسترعى الانتباه بشكل شاذ بالنسبة لمستشار أن يرى أبنه متهماً فى ساحة القضاء أو فى مركز البوليس .

وكان پيتر خلال السنة أو السنتين الأخيرتين يشعر بمشاعر التحدى والثورة نحو أبيه . ولكنه لم يكن يعبر بحرية عن هذه المشاعر والأفكار ، لأنه — كما اتضح فيما بعد — كان يعتبر الأب من القوة والسيطرة بحيث أنه من المستحيل أن يحاول أمامه أن يحتفظ بحريته أو كيانه أو كرامته فى خلال حضرته . وكانت هذه الاتجاهات نحو أبيه هى القوة الدافعة اللاشعورية خلف الفعلة الجانحة . وبالرغم من أن الثورة ضد البالغين مرحلة من مراحل النمو العادى السليم أثناء المراهقة ، وأن هذه المرحلة تساعد الولد على أن ينمو ويقتطع هذه الصلة التى تجعله يعتمد كل الأعتماد على والديه إلا أن هذه المرحلة من النمو لم تكن هى السبب المباشر فى جناح پيتر لأن هذه الروح الاعتدائية التى تظهر أثناء المراهقة ليس من الضرورى أن تقود الولد إلى أعمال جناحية ، أما پيتر فلم يكن يعبر عن مشاعره بالطريقة الطبيعية عن طريق الجدل والنقاش عن السياسة أو غيرها من الموضوعات ، وما كان يجرؤ على إبداء مشاعره العدائية بوضوح ، اذ أن هذه المشاعر — بالرغم من أنها مضطربة فى داخله — إلا أنه لم يكن يفهم أصلها على الإطلاق . ولقد كانت خبرات پيتر فى المنزل بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة تبرر ما نذهب إليه من أن مشاعره العدائية نحو أبيه كانت قوية بشكل شاذ ، وأن التعبير عنها لا يتمشى مع ضميره الخلقى .

إن نضوج الأعضاء الجنسية فى المراهقة يحمل معه انتعاش بقايا الصراع الأوديبى وعودته لليقظة ، كما أن الرغبة الشعورية للاستقلال عن الوالدين تعبر عن نفسها فى هذه المرحلة . فلما وصل پيتر إلى هذه المرحلة ، وأصبحت أمه

حاملا ، رأينا أنه — أثناء غياب أبيه — أتخذ دور الأب نحو أمه ، وعندما ولدت الطفلة اتخذ منها طفلة له . ومن المحتمل جداً أن حدوث هذه الأشياء عند هذه المرحلة بالذات قد قوى مشاعر الولد القديمة نحو الأم ، وهى مشاعر كان يريد فى الوقت الحاضر أن يكبتها ، كما زاد فى مشاعره العدائية نحو أبيه كمزاحم فى حب الأم . وزاد من صعوبة تجنبه لهذه المشاعر القديمة الصبيانية أن الأم أصرت على أن يظهر لها هذا التعلق والود كما كانت تستاء عندما كان يريد أن يمنعها من إيقاظها له فى الفراش وإحكام وضع الأغطية كما كانت تفعل من صغره ، ولعلنا نفهم من ذلك الموقف خوفه الشديد من إظهار عدائه للأب فى هذه المرحلة ، ذلك أنه فى نهاية المرحلة الأوديبية يصبح الخوف من القصاص الذى قد يحل بالفرد من عدائه لأحد الأبوين من نفس الجنس باعثاً له على ترك هذه الرغبات الأود يبية. وكان هذا بالضبط هو الموقف فى بيت پيتر فى الوقت الذى انتعشت فيه بقايا الصراع الأوديبى مسببا ليقظة الرغبات القديمة ومقوياً للعداء تجاه الأب . وكان مقدراً لهذا العداء أن يكبت بقدر الإمكان ، نظراً لقربه الشديد من الرغبة فى الاحتفاظ بالأم. ولكن الدوافع الغريزية لابد أن تجد تعبيراً ، إذا لم يكن مباشرا ، فليكن بطريقة متنكرة محجوبة . ولذا بدأ هذا العداء يتحول أولا نحو الأشخاص الذين يمثلون السلطة فى المدرسة ، وكان هذا الطريق غير كاف فى الحقيقة ، ومن هنا بدأ الضعف فى ذات الولد وذاته العليا يسمح له بالتعبير عن رغباته عن طريق الأعمال الجانحة . وكان منطقياً إذن أن يتوقع الولد العقوبة لا من قاضى المحكمة — وما كان يخاف منه أقل خوف — ولكن من الأب . كما أنه توقع من الأب أن يقتطع منه ذلك النشاط الذى سمح له بمجرى موافق ليكون رجلا متكاملا مستقلا . وهذا هو السبب فى أنه اعتقد أن أباه سيمنعه من أن يكون عضواً فى المدرسة البحرية ، وأن العقوبة التى سيلاقيها نتيجة لفعلته الشريره (وهى من وجهة نظر لاشعوره لم تكن السرقة وإنما اتجاهاته العدائية نحو الأب) هى فقدان رجولته واستقلاله .

وغنى عن القول أن الولد كان جاهلا تماماً بكل هذه النواحى من الصراع ، ولكنه كان عارفاً فقط بشعور جارف بالذنب كما أدرك أن أباه لم يعاقبه بأى عقاب ولم يكن من السهل الإلمام بهذه العوامل اللاشعورية إذا اكتفينا بمجرد دراسة الطفل الجانح ولهذا كان من الضرورى جمع تاريخ كامل متصل الحلقات لحياة الطفل من نواحيها الجسمية والأجتماعية والنفسية . وكثيرا ما نقابل مثل هذه

الاضطرابات أثناء مرحلة المراهقة عند طفل من الأطفال ، فإذا درسنا هذه الحالات دراسة صحيحة تكاملية وهيأنا البيئة الصالحة لعلاجها فإنها لاتتكرر.

وسنعرض الآن لحالة أخرى من حالات السلوك المخالف للمجتمع نتناول فيها سجلا كاملا لحالة ولد منذ جيء به إلى الأستاذ إيكهورن حتى الوقت الذى اعتبر فيه معافى . . . قال الأستاذ أوجست إيكهورن [1] :

أحضر لنا أحد رؤساء العمال ابنه فى سن السابعة عشرة . وكان الولد يعمل فى فترة التمرين ليكون صانع أحذية . وقد عرفنا من الأب عدداً من الحقائق الهامة منها أن الولد حتى الصيف الماضى كان ولدا طيعا محبوبا لم يسبب أى اضطراب سواء فى المنزل أو المصنع . ثم حدث يوماً أن سأل أباه بعض النقود قائلا إنه يود أن يشترى جانباً من الجلد ليعمل لنفسه زوجاً من الأحذية . ولكنه أخذ النقود ثم لم يعد للمنزل فى تلك الليلة . وعرفت العائلة فى اليوم التالى أنه لم يذهب للمصنع. ولما كان هذا الحادث هو الأول من نوعه عند العائلة فقد حدث اضطراب وقلق شديدان ، إذ خاف الوالدان أن يكون قد حدث للولد حادث أو هاجمه أحد . ولذا أبلغ الأمر للبوليس وأخذ يسأل عنه فى أقسام البوليس الفرعية . وبعد مضى ستة أيام علمت الأم أنه وجد مفلساً بواسطة البوليس فى بلدة أخرى وأنه فى طريقه إلى المنزل . وأحدث هذا النبأ موجة سرور ، ولكن هذا السرور ضاع فى غمرة الألم لسلوكه العجيب . ولم يرض الولد عند عودته أن يتحدث أو يدلى بأقوال عن سبب تركه العمل أو المكان الذى قضى فيه الأسبوع . كما زاد لديه التحدى والعناد ، ولم يقل أكثر من أنه كان فى جراز ، وهى المدينة التى وجد فيها . وقلق والده لهذا السلوك السيء فاستدعاه وضايقه بالتهديد والأسئلة ، وأخيراً جلده بقسوة هائلة . وبعد هذا زادت الأمور سوءا ، فقد رفض الولد أن يقوم بأى عمل ، وظل طول الوقت فى المنزل ، أو جعل يتسكع فى الطرقات أو المقاهى ، وطال غيابه عن المنزل فى الأمسيات ، وأضيف إلى كل هذا أنه استمر يأخذ نقودا من أبيه وصاحب الحانوت الذى يعمل فيه . وما كان من الأب إزاء هذا السلوك سوى أن ازدادت قسوته على الولد على أمل أن يغير من سلوكه . ولما كانت هذه القسوة تزيد الأمور سوءا وتبعد الولد أكثر فأكثر عن العائلة ، أخذت الأم تنتقل تدريجياً إلى جانب الولد وترجو الأب أن يكون أكثر رقة معه . ولم تفد هذه الطريقة سوى

1. August Aichhorn : Wayward Youth (Putnam, Covent Garden) London 1937.

فائدة جزئية مؤقتة ، وأخيراً نفد صبر الأم فعاد الأب مرة أخرى إلى القسوة .وقد ظل التناوب بين القسوة واللين مدة ولكن زادت الحالة سوءا . ولقد ختم الأب كلامه معى بقوله : « لا يمكنك أن تتصور مدى فظاعة الموقف . لقد حاولنا أن نكون على وفاق معه ، ثم حاولنا أن نأخذه بالشدة والحزم حتى جلدناه ، ولكن دون جدوى . ولست أدرى ماذا نفعل بعد هذا إنى أظن أنه إذا ذهب لمعهد من المعاهد فقد يتمكنون من إصلاحه . »

وحتى هذه اللحظة اقتصر كلام الأب على وصف سلوك ابنه ومجهوداته لإصلاحه . فلم يحدثنا مثلا عن نفسه أو عن علاقات العائلة المتداخلة . ولذا حولت مجرى الحديث إلى هذه الناحية . كانت العائلة تتكون من الأب ، وزوجة الأب ، وأخ أكبر من الولد بسنتين وعلى وشك أن يدخل الجامعة ، وأخت غير شقيقة عمرها خمس سنوات . كان الأب قد تزوج هذه السيدة منذ اثنتا عشرة سنة ، وكانت البنت الصغيرة ثمرة هذا الزواج . وكانت العلاقة بين الوالدين جيدة ، وبالمثل كانت الناحية الاقتصادية . ورفض الأب بسرعة احتمال شعور الولد بنقص إزاء معاملة الوالدين للأخ الأكبر حيث أن الاثنين كانا يعاملا معاملة واحدة وكانا يسيران بمنتهى التعاون والود إلى أن ساء سلوك الولد الأصغر . وهنا بدأ الشجار بينهما يتناول اليوم بأكمله . كما رأى الوالد أن البنت الصغرى غير الشقيقة هى من صغر السن بحيث لامحل للقول بأنها قد تكون مسببة لغيرة الولد منها ، فلقد كان الولد لايلتفت إليها كثيراً ،ولاهو بعطوف ولا بقاس عليها . وعلى العموم فقد كان الولد طيلة الحديث متبرما يشعر بالمرارة لأن الولد قد قلب حالة العائلة رأساً على عقب ، وأحال السلام شجارا ومشاحنة . ولقد كانت عادة العائلة قبلا أن يجلسوا على هيئة دائرة فى الأمسيات يقرأون بصوت مرتفع ، أو يغنون ويلعبون . . . أما الآن فإنه لايكاد يدخل من عمله مساء حتى يسمع شكاوى من سلوك ابنه العاق ، وكثيراً ما كان يجد نفسه مسوقاً للنزول للشارع للبحث عن أبنه والعودة به للمنزل . وكان الولد قد بدأ يتعلم حرفة صناعة الأحذية ضد رغبة أبيه ، فلقد رسب فى الفرقة السابعة ورفض أن يكمل عمله الدراسى فى السنة التالية .وضاعت صدى كل المناقشات والجدل لحمله على إعادة السنة ، فلقد أصر على أن يكون إسكافيا كوالد زوجة أبيه . ثم سألت عن علاقة الولد بالجنس الآخر اذ ربما أنارت لنا بعض الطريق وفسرت لم فر فى المرة الأولى . وقدأكد الوالد أنه

على علم تام بميل الولد فى هذه الناحية وأن هذا الظن مستحيل . وعندما سألته كيف يمكنه أن يفسر لنا هذا التغير المفاجىء قال : إما أن يكون قد داخله شيطان ، أو أنه قد فقد عقله . « فأجبت » لوحدث هذا لما كان المعهد هو المحل المناسب له فقال : « أوه ، أرجو ألا تأخذ حديثى حرفيا ، ولكن ما حدث قد حدث مفاجأة . »

وتحدثت مع الولد وحده . وكان نحيفا جداً ، ويبدو أكبر من سن السابعة عشرة . وكان ملبسه منسقا وجميلا وفيما يلى جزء من الحديث أسوقه بالنص :

— « هل تعرف أين أنت » ؟ — « لا . »

— « فى عيادة التوجيه الخاصة بالأطفال الذين تحاكمهم محكمة الأحداث » .

— « آه نعم ، إن أبى يريد أن يضعنى فى مدرسة إصلاحية » .

— « لقد ذكر لى والدك ما حدث وإنى لأود أن أساعدك . »

— « لافائدة . » وهز كتفيه واستدار ليبتعد عنى .

— « بالطبع لن تكون هناك أى فائدة مادمت لاتريد أن تعاونى . »

— « إنك لاتستطيع أن تساعدنى . »

— « إنى أعلم أنك لاتضع فى ثقتك ، نحن لا نعرف أحدنا الآخر بعد » .

— « ليس هذا ما أعنيه ، ولكن على أى حال فلست أرى أية فائدة . » وهنا أبدى للمرة الثانية نفس روح اليأس وعدم التعاون .

— « هل لديك الرغبة فى متابعة الحديث معى ؟ » — « ولم لا ؟ »

— « سأسألك عدة أسئلة وسأقدم إليك اقتراحاً . »

— « ماذا ؟ » وهنا بدا من نبرة حديثه بعض الترقب .

— « ألا تجيب أى سؤال لاتود الإجابة عليه . » — « ماذا تعنى ؟ »

— « ليس بك من حاجة للإجابة على السؤال الذى لا تحبه ، بل لك أن تقول إنه ليس من شئونى الخوض فيه . » — « لماذا تقول هذا ؟ »

— « لأنى لست بوليساً سرياً ، ولا جنديا من جنود البوليس ، كما أننى لست فى حاجة لمعرفة كل شىء . وعلى أى حال فإنى أدرك أنك لن تذكر لى الحقيقة لو سألتك أسئلة لا تحبها . » — « وكيف تعلم ؟ »

— « لأن كل امرىء ينطبق عليه هذا الكلام ، ولن تكون أنت شاذا . إنى مثلا لا أذكر كل شىء لشخص قابلته للمرة الأولى . »

— « ولكن إذا تحدثت وكان حديثى مليئا بالأكاذيب ، فهل ستكشف هذه الأكاذيب أيضا ؟ »

— « لا ، ولكن ستكون النتيجة سيئة . وعلى العموم لن يكون هذا ضرورياً لأننى لن أجبرك على الإجابة . »

— « هذا غريب ، فهم فى المنزل يقولون لى إذا تحدثت فلن يصيبنى أى ضرر ، ولكن عندما أفعل تنقلب الدنيا رأسا على عقب . ولذا امتنعت عن الكلام »

— « ولكن هنا قد تكون المسألة مختلفة قليلا ، إذ سأقنع بما ترضى بقوله ولكنى أود أن أتأكد من أنك تقول لى الحقيقة » . — « حسنا . »

— « أتوافق ؟ » ومددت له يدى فتناولها فى لهفة . — « كل الموافقة . »

إنك ستفهم بطبيعة الحال هذا النوع من المقدمة والغرض منها بشكل أدق عندما نتناول موضوع الاتصال العاطفى بين المريض والشخص المعالج فيما بعد وسترى أى علاقة جميلة تلك التى كونتها لديه

— « أى فرقة كنت فيهاعندما تركت المدرسة ؟ » — « السابعة »

— « لم لم تستمر فى تعليمك فى المدرسة ؟ »

— « لقد رسبت فى ثلاث مواد ولذا لم أود أن أستمر أكثر من ذلك » .

— « وهل كان أبوك موافقاً على هذا العمل ؟ »

— « كان يفضل أن أعيد السنة . »

— « كيف حدث أن اتخذت صناعة الأحذية حرفة ؟ »

« إن جدى صانع أحذية ولذا أردت أن أكون إسكافيا مثله . »

— « إننى أهتم كثيرا بمتاعبك كلها ، ولكن كيف بدأت ؟ لماذا ذهبت إلى جراز ؟ » — لا أعلم . »

— « ومع هذا فلابد أنه كان ثمة سبب دعاك للذهاب . كان يمكن أن تختار بلدا آخر . » — « لست أعرف حقيقة . »

— « ولكن لم يمر على الحادث وقت طويل ، بل أقل من سنة . فكر قليلا قد يأتيك السبب . »

— « قد يكون السبب أن أخى ذهب إلى هناك منذ سنة مع جماعة لقضاء عطلة . » وهنا ارتبك وتردد قليلا والتزم جانب الصمت .

— « ألا تريد أن تذكر لى شيئاً أخر ؟ » ولقد سألته هذا السؤال بعد فترة صمت لاحظت أثناءها أن الولد كان يلاقى صراعاً مع نفسه دون أن يتملكه من أن يجد توفيقاً . وهنا نظر إلى مليا ثم أحنى رأسه ، وقال وهو يغالب دموعه : « إذا وعدتنى ألا تذكر هذا لأبى فسأقول لك شيئا . »

— « هذى يدى ضمانا لهذا . » وتناول يدى وهزها فى حرارة .

— « أردت أن أقتل نفسى . » — « متى » ؟ — « فى الصيف الماضى . »

— « قبل أن تأخذ النقود من والدك أو بعد هذا ؟ » — « قبل » — « لماذا »

— « لقد ذهب أخى مع أمى لزيارة إحدى عماتى . ولكونى لازلت أتدرب على صناعة الأحذية يومياً كان على أن أبقى فى المنزل . ذهبت بعد ذلك للعمل طيلة الأسبوع . وبعد هذا تغيبت ثلاثة أيام فخفت أن يسمع أبى بما حدث . وهنا أردت أن أقتل نفسى . » — « وهل حاولت أن تفعل هذا حقاً ؟ »

— « لا . فكرت أن أفر إلى مكان ناء ولا أعود مطلقاً . ولذا حصلت على النقود من أبى وذهبت فى رحلة طويلة . وعندما نفدت النقود لم أعرف ماذا أفعل ثم عدت للمنزل . وهنا وجدت صخبا وضجيجا هائلين ، ومنذ ذلك الوقت سار كل شىء سيرا خاطئاً » . — « ما هى علاقتك بأخيك ؟ »

— « على مايرام . لقد اعتدنا أن نكون على وفاق . أما الآن فهو فى صف أبى . » — « هل تظن أن الأطفال الآخرين يعاملون أحسن منك فى المنزل ؟ » . — « لا . »

— « ألا يهمك أن يصيب أخوك من التعنيم قدراً كبيراً بينما تقتنع أنت بعمل أسكافى ؟ » ولم يجب الولد على هذا السؤال ، ثم سرد هذه الحقائق . كان عمره أربع سنوات عند ما أتت أمه. وتزوج أبوه فى السنة التالية ، وكانت زوجة أبيه متعلقة بأبيها تعلقا كبيرا . ولابد أن يكون هذا الأخير ، كما أخذنا من كلام الولد ، رجلا عاقلا أريبا .وسرعان ما تحولت علاقة الولد الوثيقة بأمه إلى زوجة أبيه . كما كانت علاقته بأبيه حسنه حتى السنة الماضية . وبالرغم من حالة العداء الحالية نحو أبيه فقد وصفه كرجل حسن الطبع ، يقضى الأمسيات فى المنزل ، ويندر أن يذهب إلى الحانات ، كما كان يقضى وقتا طويلا مع أطفاله ولم يشعر العائلة بضغط أو إجهاد مالى كبير .

ومن الطريف أن تعلم كيف انطلق الولد يبرر حكاية النقود . فقد أعطى

الوالد ابنه الأكبر نقودا لينفق منها على رحلة مع زوجة أبيه ، ولذا شعر الأصغر أن من حقه أن يحصل عل نفس المبلغ . ولو كان قد ذكر لأبيه السبب الحقيقى لطلبه النقود لما كان هناك شك فى رفض الأب لهذا القدر . ولذا كذب ولم يكن واضحاً لماذا كان يعتبر أباه مسئولا عن كونه إسكافيا قال « كان يجب أن يعرف أبى أحسن مما أعرف . لقد كنت أحمق ، إن ولدا فى الرابعة عشرة لاينتظر منه أن يقرر مستقبله فى ضوء الحكمة وبعد النظر . كان يجب أن يجعلنى أبى أكرر السنة الدراسية . ولوكان قد أصر على رأيه لكنت قد أطعت ، ولا بد أنى كنت اليوم طالباً فى المدرسة . »

وبعدمدة سألته ما اذا كان يعتقد أن فى الإمكان أن يتفق هو وأبوه ويتفاهما ، مبديا استعدادى للمساعدة . وجدته متشائماً ، ولكن ليس ممانعا كما كان الحال فى أول مقابلة . قال « أوه ، لقد تحدثت مع أبى مراراً وتكرار ، ولكن بدون فائدة ». ولقد حاولت أن أجعله يدرك أن أباه لايمكن أن يفهمه مادام لايعرف هو اتجاه تفكيره . ودعوته لأن يتركنى أفسر الأمر لأبيه .وهنا أحلنى من وعدى له بألاأ ذكر شيئاً كما قدمنا .

وهنا خرج الولد إلى الغرفة المجاورة وأرسل أباه إلى . ولقد تحدثت إليه مدة طويلة قبل أن أتمكن من إقناعه بأنه قد عاش طيلة هذه الحقبة الطويلة مع ابنه دون أن يتمكن من فهمه، دون أن يعلم هذا ودون أن يقصده . ولقد ذكرت له أيضاً ماعاناه الولد كنتيجة لهذا الموقف . وقد ظل يصغى لأول وهلة فى دهشة شديدة ، ويهز رأسه غير مصدق ، وبعدئذ غضب غضباً شديداً . وأخيراً بدأ يفهم فلم يعد يمكنه أن يغالب دموعه . اعتذر وقال إنه لم يبك بهذه المرارة منذ أن كان طفلا فطمأنته بقولى إن هذه استجابة طبيعية إزاء هذا الإدراك . وانى اعتبرته دليلاعلى حبه لولده . وهنا هدأ وأصبحت حالته داعية للتفاهم لدرجة أنى رأيت الوقت المناسب لجمع الأب والابن فى طريق قد يوصلهما للتفاهم .

وهنا يجب أن أعود إلى نقطة هامة حتى لايحدث ارتباك فى سير الحوادث . إن من الخطأ فى موقف فيه صراع أن توفق بين طرفين للتحدث إلى كل للتخفيف من غلوائه . ويلاحظ أن ما فعلته هنا لم يكن متعارضاً مع هذا الرأى . إن عرض الموضوع للحديث قد أفادنا فى مساعدة الولد على أن يذكر لوالده الدوافع التى

دعت لسلوكه وبذا أعدت العلاقة المفقودة بينه وبين الأب ، وهذا وضع للعلاقة الحسنة الماضية على أساس أوثق .

ولذا ناديت الولد ، وبدأت الحديث على ضوء ما ذكرت من غرض ، ثم تركتهما وحدهما وأنا أحس أن شخصاً ثالثا سيكون عقبة فى طريق التفاهم . وبعد مضى ما يقرب من ثلث ساعة عدت لأجد كلا صامتا وعيناه حمراوتان . وقال الأب كأنما يجيب عن نظراتى المتسائلة « ليس هناك أية فائدة ، إنه لايريد الكلام ومع إدراكى التام لضرورة احتفاظ المرشد لهدوئه وثباته ، وعلمى بضرورة تفهمى وتقديرى للموقف العاطفى للأب ، إلا أنى غضبت وشعرت بخيبة أملى فيه . فقد قضيت معه ساعتين أبين له كيف نشأ الموقف وحاولت أن أريه ما يجب أن يفعل ليعيد الولد إلى حالة العطف والحنان القديمة ، فإذا بى أراه يتصرف هذا التصرف الأخرق . ووجدت نفسى دون أن أنظر إلى الأب ، أذهب إلى الولد فأضع يدى على رأسه قائلا فى حنان : « لاعليك ، إن المرء لايحتاج دائماً للكلام . وقد يفهم شخصان بعضهما تماما دون حاجة للحديث . » وهنا بدأ الولد يبكى بمرارة . ولست أدرى كيف حدث ما حدث أو من الذى بدأ الموقف ، ولكنى فوجئت برؤية الأب والابن يحتضن أحدهما الآخر . وإنى لأقر أننى أيضا تأثرت لهذا المشهد . وبعد أن هدأ قليلا أردت أن أخرج الولد قليلا إلى الخارج ريثما أذكر شيئاً هاما للأب ، ولذا أرسلته يشترى صندوقاً من التبغ ، وبينت للأب على قدر مايمكن من الإيضاح أن هذا التفاهم الأول بعيد جدا عن نهاية الصراع ، ويمكنه أن يتوقع أن يسبب الولد مضايقات أكثر فى القريب العاجل . ونظرا لضيق الوقت نصحته أن يعود بمجرد عودة الولد إلى سلوك مشاكس لكى يستشيرنى قبل أن يتصرف بنفسه . وتبعاً لاقتراح الولد اتفقنا على أن يذهب الاثنان إلى صاحب حانوت الأحذية ليتسلم الولد عمله بعد الظهر وبدا على الولد أنه مسرور ومرتاح . وخرج الأب والابن وكل يضع ذراعه تحت الآخر كما لو أن انسجاما أبديا قد توثقت عراه بينهما .

وفى صباح اليوم التالى وجدت الأب ينتظرنى وهو يائس . وظل يصب فى أذنى عبارات الشكوى . « لافائدة . إنا لا نستطيع أن نفعل شيئاً مع هذا الولد. يجب أن يذهب إلى إصلاحية الأحداث . لقد رأيت كيف كان منكسرا بالأمس ، أما الآن فلا تزال فصول الرواية القديمة تمثل . إن العطف لا ينفع معه . »

وسألته هادئا : « ولكن ماذا حدث ؟ » ولعلك ترى أنني لم أضطرب كثيرا فقد أخبرته بالأمس أن شيئاً لابد أن يحدث . ومع هذا فقد دهشت لحدوث هذا الأمر بهذه السرعة . واستطرد الأب ، « لقد ذهبنا سوياً على أتم ما يكون التفاهم وفى الطريق رحت أحدثه ناصحاً له أن يكون طيعاً الآن مادمت قد سامحته. وقد ظل يستمع إلى دون أن يتكلم لدرجة أنى وجدت من الصعب جدا أن أحتفظ بهدوئى . ولم أتقدم لصاحب العمل بأى تفسير حيث أنه يظن أن الولد كان مريضاً . ولكن بدلا من أن يبدأ العمل بعد الظهر ظل يتسكع فى الطرقات حتى ساعة متأخرة من الليل . وبالرغم من أنى نبهت الأب إلى احتمال شرود الابن فإنه انطلق يعنف الأبن بقسوة متهما إياه بأنه ابن ضال لايعترف بالجميل . »

إن من الواضح أن الولد الذى اعتاد القسوة من أبيه لابد أن يشعر بالشك والتحفظ عندما يرى فجأة مصدر القسوة يبتسم فى نعومة . ولهذا كثيراً ما يقوم الولد على امتحان هذا الشعور الجديد ، ولايمكن إحلال الثقة إلا إذا اقتنع الولد أن العقوبة قد أعرض عنها تماماً . وبدلا من أن يفهم الوالدان هذا إذا بهما يعتبران سلوك الولد دليلا على شروره وعدم صلاحية العطف معه ، وبالتالى يعود الموقف إلى أسوأ مما كان عليه .

قابلت الولد فى المساء وأنا فى طريقى إلى منزلى . كان مؤدباً رقيقاً ولكن لم تكن به رغبة للانصال بى . ولقد سألته عن حالته وعمله : فقص عدة أكاذيب . وعندما سألته عن والده قال « إنك تظن أنه أحسن كثيرا مما هو فعلا » واستطرد « لقد أثارنى طول الطريق إلى المنزل أمس . وقال إن على أن أكون طيباً ما دام قد سامحنى . » وهكذا فهمت كيف عاد الولد إلى سلوكه الجانح بهذه السرعة وتحادثنا أحاديث عامة عن الموسيقى وغيرها ثم اتفقنا على أن نلتقى ثانية . وفى اليوم التالى وجدته ينتظرنى فى المكان بالضبط ودام اجتماعنا أكثر من ساعة ، ثم اجتمعنا ثانياً وثالثا . وقد دعانى لزيارة منزله فى إحدى الأمسيات لأسمع منه بعض الموسيقى . فقلت له إننى ناقد قاسى فى موضوع الموسيقى وعليه أن يهيىء برنامجا قويا قبل قدومى ولعلك تفهم أننى أردت أن أحول هذا الدافع الذى بدا منه إلى ناحية تربوية . تكررت مقابلاتى له وكنت أعلم أنه إذا كان يرجى أن أعالج هذا الولد يجب أن يكون لديه إحساس عاطفى قوى من نحوى . ولم يكن من المناسب أن أسأله عن هذه العواطف وإنما رأيت أن أختبرها بنفسى فسألته يوما أن يحضر لمقابلتى

قبل ميعادى بساعتين فوجدت فى اليوم المحدد أنه مضى بعد أن انتظر ساعة ونصف . ولم يكن قلقا عندما مضى بل ترك رجاء مؤدبا أن أدعه يعرف أين ومتى يمكن أن يقابلنى . وعندما قابلته فى اليوم التالى وجدته بشوشاً ولم يوجه إلى أى لوم أو سؤال بل على العكس قال إنه فهم أن لدى أعمالا كثيرة ولذا لم أتمكن من الوفاء بوعدى . ووكان يتمرن فى هذه المدة مع أخيه فى أوقات فراغهما على إعداد برنامج موسيقى قوى نجحت بواسطته فى أن يتعاونا معا ويشعرا بالاشتراك فى المسئولية ، وبينما نحن فى الطريق فى احدى المقابلات قال « لو كان أبى مثلك لما فعلت شيئاً من كل تلك الأعمال الشائنة التى ارتكبتها » . ووجدت فى هذا مقدمة طبيعية للحديث عن علاقته بأبيه ،وانقضت المقابلات الثلاث التالية فى الحديث عن علاقته بأعضاء العائلة .

وبعد أسبوع قابلنى متهلل الوجه لأن صاحب الورشة كافأه بثلث المرتب علاوة رغم أنه منحه أجرا إضافيا من أسبوعين فقط علاوة على أنه جعله يتسلم منصباً مهما فى المصنع . ومن الطبيعى أن صاحب المصنع . كان خالى الذهن عنا لأنه من عادتى ألا أحيط مكان العمل بما أفعل لئلا يستغل أصحاب العمل هذه المواقف لإحراج الصغار .

وجاء يوم الأحد موعد زيارتى لهم . كانت العائلة كلها فى المنزل ، وكان قلق الولد على أشده ولم أجد طريقة أصلح فى تهدئته من أن يبدأ هو وأخوه . ولقد كان الولد متحمساً جدا فجعلته يرى بوضوح أننى مسرور . كانت العائلة كلها سعيدة . ولم نشر أى إشارة إلى سلوك الولد الماضى والحاضر . ولسرور الأب من النتيجة جاء معى سائراً جزءا من الطريق . وبعد عدة أيام علمت أن الولد أخذ يعمل إضافياً فى المساء وهكذا ازداد إقباله على العمل . ولما قابلت أباه قرر أن سلوك الولد على أحسن ما يكون وأنه يتمنى أن يستمر . كان واضحاً أننا هنا نتناول حالة اعتداء ضد الأب . وكان الولد يشعر بنقصه إزاء أخيه الأكبر لأن الميزات التى كان يتمتع بها هذا الأخير كطالب كان يحرم منها صديقنا بحكم انشغاله فى عمل الإسكافى أو التدريب عليه . ولكن لم يكن واضحاً تماما لماذا كان غاضباً من أبيه ومع ذلك فقد استطاع التحليل أن يصل إلى الأعماق ويعالج هذه الحالة الجانحة » .

كنت أود أن أشير فى التحليل إلى حالات أخرى لنتبين مدى قيمة التحليل

النفسى فى علاج هذه الحالات الجانحة ونشعر بمدى ما يصيب المعالج النفسى الموفق من نجاح من خلق تكيف جديد لأحداث لو لم تهيأ لهم هذه الفرص لانقلبوا إلى مجرمين خطرين ، لاشك أنهم شر على أنفسهم وعلى وطنهم . على أن ضيق المجال المسموح به يجعلنى أقصر يدى عن الكتابة مكتفيا بما ذكرت على أنها عينات طيبة لدراسة جناح الأحداث دراسة نموذجية .

وأود أن أشير إلى أن محاكم الأحداث فى مصر محرومة من هذا الميدان إلا النذر اليسير . فليس لدينا فى مصر مراكز تحليل نفسى ملحقة بالمحاكم اللهم إلا مكتب الخدمة الاجتماعية الملحق بمحكمة أحداث القاهرة . ولست أغض الطرف عن مدى الخدمات الطيبة التى يقدمها هذا المكتب أو أقلل من قيمة هذه الخدمات ، إلا أنى أود أن أقرر أنه — فى وضعه الراهن — يقصر عن أن يمتد إلا إلى نسبة قليلة جداً من حالات الأحداث الجانحين نظراً لقلة ميزانيته وقلة عدد موظفيه والإخصائيين فيه .ذلك أن هذا المكتب ليس به إلا طبيب نفسانى واحد — وهو وان كان يبذل مجهوداً كبيراً فى هذه الناحية — إلا أنه لايمكن أن يحيط بهذا الجيش من الأحداث فى مصر إحاطة تسمح له بالاتصال المباشر بالشكل الذى بيناه فى الحالات السابقة . أضف إلى هذا أن بقية القطر المصرى لايتمتع للأسف حتى بمثل هذا المكتب .

وأود أن أشير أيضاً إلى الطريقة التى عولجت بها هذه الحالات السابق سردها فالنظرة التى تقوم على التأمل لا شك توصلنا إلى أن دراسة الأحداث الجانحين لا يمكن أن تكون من ناحية من نواحيها فقط ، بل ينبغى أن تكون دراسة تكاملية تشمل النواحى الاجتماعيه والمادية والتاريخ النفسى لكل حالة . ولهذا ينبغى أن يتتبع المحلل النفسى الظروف البيئية الطبيعية التى تحيط بالطفل وتاريخ نموه الصحى والجسمى ، وتاريخه التعلمى فى مراحله المختلفة ، وتاريخه المهنى إن كان قد بدأ الحياة المهنية ، وحالته الأسرية والأجتماعية والأقتصادية ،وكذا العوامل النفسية والعقلية التى أدت إلى انحرافه .وعلى أساس هذه الدراسة يمكن للمحلل أن ينظر نظرة سديدة إلى الطريق التى يمكنه أن يسلكها ليعيد تكيف الطفل تكيفاً سليما إزاء هذه البيئات المختلفة .

ماهر كامل